الفصل الثاني

الترشيد الإسلامي للفكر العلمي المعاصر
منهجه وتطبيقه(*)

الترشيد الإسلامي.. بأي معنى؟

كثيرًا ما يخضع اختيار المصطلحات في بحث موضوع ما لعدد من الاعتبارات التي تتوخى بالدرجة الأولى أهداف البحث و إجراءاته، على الرغم مما قد تثيره هذه المصطلحات من إشكاليات يطول النقاش والجدل حولها. فالمقولة الشائعة تقضي بأن «لا مشاحة في المصطلح»، أي: لا مجادلة فيما تعارف عليه أهل الاختصاص لغة وشرعًا واصطلاحًا، بل وفيما اتفق عليه الناس عُرْفًا، بوضع اللفظ إزاء المعنى، لأداء مدلول معين في بنْية النسق المعرفي لعلم من العلوم، أو ثقافة من الثقافات.

وبالنسبة للثقافة الإسلامية ولغتها العربية، يكون المصطلح إسلاميًا إذا كان مستمدًا في لفظه ومعناه من الأصول الإسلامية، أو كان لا يتعارض في لفظه ومعناه مع الأصول الإسلامية.

وكلمة «رَشَد» ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم 19 مرة، منها: قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [سورة الكهف: 10]، وقوله سبحانه: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [سورة البقرة: 256]، أي وضح بالآيات الباهرة طريق الحق وطريق الضلال.

وفي اللغة: رَشَدَ يرشد رُشدًا ورشدًا ورشادًا: اهتدى فهو راشد.

(*) محاضرة ألقيت في الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ونشرت في كلمة التحرير، مجلة المسلم المعاصر، العدد (132) 2009م.

أَرْشَدَهُ: هداهُ ودلّهُ.

رشَّدَهُ: أرشده وهداه: جعله راشدًا ورشيدًا.

رشّد القاضي الصبيَّ: قضى برُشْدِه.

الترشيد: حكم القاضي ببلوغ الشاب الرشد.

ويقال: ترشيد الإنفاق: حسن القيام على المال وتوجيهه في خير سبيل.

ومن ثم يكون «ترشيد الفكر» بمعنى إصلاح مسيرته وتقويم وجهته لتعظيم فائدته وتحقيق غايته.

ويكون ترشيد الفكر إسلاميا بالتأصيل المنصف له في السياق التاريخي الشامل، وبتصحيح ما شابَهُ من مغالطات تاريخية وعلمية، وبتنقيته من أي مفاهيم غير إسلامية، وبتوجيهه نحو الهدف الأسمى، وفق مرجعية إسلامية رشيدة تُعين الإنسان على أداء أمانة استخلافه في الأرض حتى يستكمل حكمة الله من خلقه وخلقها، وذلك بإعمارها وترقية الحياة عليها، وتحقيق تمام الانتفاع بخيراتها، ومدّ جسور الأخوة مع بني الإنسان في كل مكان، بعد أن سخر الله - تعالى - له كل ما في الكون من نعم ظاهرة وباطنة لينتفع بها ويمجد بانتفاعها رب العالمين. فالترشيد الإسلامي للفكر الإنساني إذن هو ذلك المشروع الحضاري الذي يهدف إلى حسن فهم وترتيب العلاقة السليمة بين الكون والإنسان، في معرض الحث على النظر فيها، في ضوء التصور الإسلامي المستند إلى كتاب الله الكريم وسنة نبيه الأمين ﷺ، أو صياغة ما يمكن أن نسميه، بالنسبة للفكر العلمي، «النظرة الإسلامية للعالم أو الكون» The Islamic Worldview كما تُصِّوره حقائق (معطيات) العلم والتقنية، أو نسميه أيضًا «الرؤية الكونية الإسلامية».

وهكذا فإن الخطوات الإجرائية للترشيد الإسلامي تجمعها «معادلة التاءات الخمسة» على الصورة:

الترشيد الإسلامي = تأصيل + تصحيح + تنقية + توجيه

حيث تتفاعل معطيات كل حدّ Term من حدود هذه «المعادلة المعرفية» في العقل المسلم بصورة تعينه على الترقي المستمر في عطائه الحضاري نحو الهدف الأسمى. أي أن الترشيد الإسلامي، بعبارة موجزة، هو **«منهاج يُتّبع ووِجهة تُولّى شطر الهدف الأسمى»**.

إن المنهج الإسلامي قد احتضن حضارة المسلمين الأولى التي حققت انتشارًا ودوامًا متلازمين لم تحققهما أي حضارة أخرى على مر العصور، ولا يزال هذا المنهج قادرًا على ابتعاث حضارة جديدة زاهرة ترسى قواعد المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام إذا ما أدركنا الحاجة الماسة إلى إحياء تراثنا الإسلامي وتنقيته وتوسيع دائرته، و إلى ترشيد العقول المفكرة في إطار الإلمام الواعي بحقائق الواقع المعيش، وباحتياجات الأمة وآمالها، وباتجاهات الفكر العالمي وفلسفاته التقليدية والمعاصرة، دون أدنى انبهار بأي نماذج معرفية وافدة: غربية أو شرقية.

ضرورات الترشيد الإسلامي للفكر العلمي المعاصر

لقد مرّ تاريخ الفكر البشري بثورات علمية وتقنية كبرى أحدثت سلسلة من التغيرات في فكر الإنسان ووعيه وتصوّراته عن نفسه وعن العالم الذي يعيش فيه، وكان لعلماء الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، بدافع من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ومنهجه القويم، دور بالغ الأثر والأهمية في تأسيس الكثير من المفاهيم والنظريات والعلوم والتقنيات التي قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة، ومهدت الطريق المؤدية لكل الإنجازات الحضارية التي تجني البشرية ثمارها اليوم. ولابد لأي باحث منصف أن يأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار عند التعامل مع القضايا الفكرية والعلمية التي تحظى بدراسات نوعية متخصصة للوقوف على حقيقة أثرها في حاضرنا ومستقبلنا.

ولما كان من الطبيعي أن يكون لكل ثورة علمية جديدة أنموذج إرشادي (بارادايم) جديد[1]، فإن الثورة العلمية والتقنية المعاصرة في مجالات علوم الكون والحياة والاتصالات والمعلومات، وغيرها، تفرض إعادة النظر في الإجابات المتعلقة بقضايا الكون والوجود على

(1) توماس كون، **بنية الثورات العلمية**: الترجمة العربية، عالم المعرفة، الكويت 1992م.

أساس العِلمين الكلاسيكي والحديث، في إطار ثقافة (فلسفة) إسلامية رشيدة لها مرجعيتها العقائدية، ورصيدها الحضاري، وامتدادها الإنساني، وهدفها الأسمى. كما أن مراجعة الخطاب العلمي، من ناحية أخرى، أصبحت ضرورة حتمية من ضرورات التجديد الحضاري، انطلاقًا من أهمية العلم ذاته كعنصر أساسي وحاكم في بناء الحياة المعاصرة وتوجيه حركتها، وفي علاقتنا مع أنفسنا ومع غيرنا في حدود أوضاع اجتماعية وافتصادية وأخلاقية وروحية لا يمكن إغفالها، بعد أن أصبحت موضوعاتها وثيقة الصلة بفلسفة العلم الجديدة[1].

وينبغي للخطاب العلمي أيضًا أن يوجَّه إلى إشاعة الروح العلمية بين كل فئات المجتمع ليصبح التفكير العلمي منهاج عمل وأسلوب حياة لمواجهة كل مظاهر الوهم والخرافة، مع التأكيد على أهمية البُعد الأخلاقي في التطبيقات العملية لمنتجات البحث العلمي والتقني، والإعلاء من قيم التقدم الحضاري وما تتضمنه من شعور بالمسئولية والتزام بالدقة والأمانة والموضوعية.

ومما يعوَّل عليه أيضًا من مراجعة الخطاب العلمي الإسلامي وتطويره، إلى جانب إصلاح الأحوال المتردية للأمة، هو التصدي لتفنيد مزاعم المشككين في الإسلام عقيدة وتاريخًا وحضارة، خاصة أولئك الذين يتخذون من العلم ومنهجه رداء خادعًا لكي تبدو مزاعمهم وكأنها نتاج منطقي للمعرفة العلمية وتعبير حقيقي عن الواقع الإنساني. وأكثر ما يزعج هؤلاء هو تصحيح واقع الفكر الإنساني المعاصر لدى علماء العالم ومفكريه، إذا ما وصلت إليهم حقائق الإسلام واستفادوا منها في إصلاح شئون حضارتهم المادية المهددة بالانهيار[2].

ولعل من أهم ما يرجى من مراجعة الخطاب العلمي الإسلامي هو تحقيق التوافق والانسجام consistency بين الفكر والواقع، ليس فقط بالنسبة لأمتنا الإسلامية، ولكن أيضًا بالنسبة للعالم. إن العلم والفكر اللذين لا يعمر بهما الكون، ولا تصلح بهما البيئة، ولا ترقى بهما الحياة في جانبيها الروحي والمادي معًا، هما علم وفكر قاصران، وضررهما أكثر من نفعهما. ولعل الواقع المعيش يؤكد هذه النظرة، بعد أن رأينا تخلي الحضارة المعاصرة عن الجانب الروحي، وانغماسها في سباق التقدم العلمي والتقني، بمعزل عن القيم الإيمانية الهادية، وتمسكها بالمذاهب النفعية

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **دراسات إسلامية في الفكر العلمي**، دار الهداية، القاهرة 1997م.
(2) د. أحمد فؤاد باشا، **في التنوير العلمي**، دار الفكر العربي ومكتبة الأسرة، القاهرة 2006م.

لتحقيق مصالح خاصة. وها نحن نرى المتقدم الذي يمتاز بصناعة الأفكار، وهو في صناعتها لديه المادة الخام، ولديه الآليات، ولديه السوق المفتوحة لنشر بضاعته من الفكر والحضارة، قد فشل فشلاً ذريعًا في إدارة حضارته إلى الحد الذي أصبحت فيه هذه الحضارة نفسها مصدر تهديد لحياته، قد يفضي إلى فنائه. كما لم تحقق دراساته المستقبلية النجاح المطلوب في تقدير التحديات التي يملى مواجهتها ذلك الفكر المادي، و يشترطها ازدهار حضارته المزعومة. وقد تجلّى هذا الفشل في مواجهته للتحديات البيئية ومشكلات التلوث وتغيرات المناخ أثناء و بعد مؤتمري قمة الأرض في «ريو» عام 1992م و«جوهانسبرج» عام 2002م.

أما المجتمعات الإسلامية، التي يتصالح فيها الفكر مع الواقع في ظل المنهج الإسلامي الرشيد، فهي القادرة على بناء صرح الحضارة المتوازنة وفق تشريعات حكيمة تنظم الحياة في كل جوانبها ومرافقها. ففي إطار التصور الإسلامي لقضايا الوجود الكبرى نجد أن العقيدة الإسلامية توفر لأتباعها أهم مقومات النظر السليم في التعامل مع البيئة (الكون) المسخرة لهم من قبل الله دون أدنى تناقض بين الفكر والواقع. ومن ثم يجد العقل المسلم في ذاته دافعًا أقوى مما لدى سواه في الإقبال على قراءة أسرار الخالق المنبثة في كتاب الخلق، والسعي نحو بلوغ تعميمات علمية (قوانين ونظريات) من مجموعة محددة من الوقائع، إيمانًا منه بأن كل ما في الكون من قوانين مستمد من إرادة الله ومتوقف عليها.

ولنا في تاريخ الإسلام خير مثال، عندما أنتج علماء المسلمين فكرًا متماسكًا يتلاءم مع واقعهم، وقدموا للعالم واحدة من أزهى الحضارات التي عرفها التاريخ البشري، كما قدموا حلولا شافية للمشكلات البيئية التي واجهتهم على المستويين الفكري والعملي[1].

مجالات الفكر العلمي المعاصر (علوم العلم)

لقد تشعبت القضايا المتعلقة بصناعة العلم في عصرنا بحيث أصبح من الضروري البحث عن أسلوب أمثل في التعامل معه لفهم طبيعة نموه ومجالات تأثيره وآفاق تسخيره لخدمة حياة الأحياء كما أرادها الله - سبحانه وتعالى - على الأرض.

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **مشكلات التلوث وتغيرات المناخ، نحو ثقافة بيئية رشيدة**، دار الفكر العربي، القاهرة 1429هـ - 2008م.

ونشـأ نتيجة لهذا اتجاه فلسـفي تطبيقي جديد ومتجدد بتجدد العلـوم وتطورها وتفرعها، يعني بكل ما يتصل بهذه العلوم وتقنياتها، و يهدف إجمالاً إلى فهم مكانتها في حياتنا و يقوم على بحث الظاهرة العلمية وتحليل لغة العلم ومقولاته الموضوعية من جوانب مختلفة تسمّى «علوم العلـم Sciences of Science»، ولا يمكن للعلم أن ينسـلخ عنهـا[1]، ومن ثم لا يمكن تصور أن تكون هناك قائمة بموضوعات معينة ينبغي أن تدرج تحت هذا الاتجاه الفلسفي الجديد، بحيث يكـون الخـروج عليها انحرافًـا عنها وجهلا بها، فقـد يصدق هذا على العلم نفسـه وليس على فلسـفته، وعلى هذا الأسـاس يمكن للمشتغلين بفلسـفة العلم وقضايا الفكر العلمي أن يطرقوا مجالات عديدة، نشير إلى بعضها فيما يلي:

1- **«تاريخ العلم والتقنية»:**

هـو أحد فـروع **«علـوم العلم»** المعـنى بوصف وتحليـل وتقويم حركـة العلـم والتقنية عبر مراحلهـما التاريخيـة المتعاقبة، للوقوف على عوامل تقدمهما أو تعثرهمـا من وجهات نظر متعددة. و يتميـز تاريخ العلوم الكونية والتقنية عن تاريخ الأحداث الماضية للأشـخاص والحضارات بأنه يتكون دائمًا من حقائق قابلة للتحقيق والاختبار والاسـتنتاج، إذا ما توفرت لها نفس الظروف، أو اتبع في اسـتنتاجها نفس الأسلوب. وسرد هذه الحقائق تحكمه نظرة انتقائية منظمة لها وفقًا لمحور أساسي يضمها ويجذبها إلى مسار له اتجاهه الخاص، ذلك لأن الحقائق العلمية ليست كلها على درجة متكافئة من الأهمية والدلالة عندما يتناولها المؤرخ بالتحليل والتفسير في أي عصر من العصور.

من هنا تتضح أهمية تاريخ العلم والتقنية في صياغة نظريته العامة، حيث يستحيل انفصال العلم عن تاريخه، باعتباره عملية ممتدة خلال الزمان، و إذا ما ران على العلم جهل بتاريخه، فإنه لا محالـة مخفـق في مهمته. وما يهمنا في هذا المبحث المهمّ من علوم العلم أنه يشـمل جزءًا كبيرًا من التاريخ العلمي والحضاري يخص الحضارة العربية الإسـلامية ودورها الرائد في ترقية الحياة البشرية وتطوير العلوم ومناهجها.

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **فلسفة العلوم بنظرة إسلامية**، القاهرة، 1984م.
- د. أحمد فؤاد باشا، **في فقه العلم والحضارة**، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة 1997م.
- د. أحمد فؤاد باشا، **دراسات إسلامية في الفكر العلمي**، دار الهداية، القاهرة 1997م.
- د. صلاح قنصوة، **فلسفة العلم**، القاهرة 1981م.

2- «أبستمولوجيا العلم» و«المنهجية العلمية»:

وتعني البحث في نظرية العلم من حيث إمكان المعرفة العلمية ومصادرها وطبيعتها. والبحث في إمكان المعرفة يتضمن النظر في إمكان العلم بالوجود أو العجز عن معرفته، وفيما إذا كان في وسع الإنسان عن طريق العلوم المختلفة أن يدرك الحقائق اليقينية وأن يطمئن إلى صدق إدراكه وصحة معلوماته، أم أن قدرته على معرفة الأشياء مثار للشك وعدم اليقين. أما البحث في مصادر المعرفة فيتعرض للنظر في منابعها وأدواتها المتمثلة في العقل والحس والحدس، وغيرها من الملكات الإدراكية التي أنعم الله بها على الإنسان، وكذا للنظر في أنواع المناهج العلمية (الميثودولوجيا) المستخدمة لوسائل المعرفة، ومدى مقدرتها على ضمان سلامة التحصيل المعرفي. وأما البحث في طبيعة المعرفة فيمس حقيقتها وقيمتها وحدودها بين الاحتمال واليقين، وكذا ماهية العلاقة بين الباحث وموضوعات بحثه في مختلف العلوم. وهنا يحسم التصور الإسلامي كل أشكال الجدل المثار بشأن قضية المعرفة ومصدريها في الوحي والكون، وغاياتها في بلوغ الحقيقة الناصعة بعيدًا عن أوهام الفلسفات الوضعية الرديئة.

3- «أنطولوجيا العلم»:

وتعني البحث في كشف طبيعة الوجود اللامادي في القضايا «الميتافيزيقية» المترتبة على التصورات أو المفاهيم والقوانين العلمية، مثل: المادة والطاقة والزمان والمكان والكيف والعلة والقانون، وغيرها. فمثل هذه المفاهيم تشكل وحدات أساسية في نسيج المعرفة العلمية، بالإضافة إلى أنها تدخل في رسم الصورة التي يتخيلها الإنسان عن الكون وفق ما ترتضيه هويته الثقافية ونزعته الفلسفية أو عقيدته الدينية. وهنا يجد البعد الإيماني والوجداني لفلسفة العلم في هذا الميدان آفاقًا رحبة للبحث والتأمل والتقصّي، خاصة إذا ما أحسنت الإفادة من مبحث الأبستمولوجيا (المعرفة) باعتباره الوسيلة لإدراك الحقيقة في المسألة الميتافيزيقية.

4- «أكسيولوجيا العلم»:

وهي ما يعرض للبحث في القيم والمثل العليا ومدى ارتباطها بالعلم وخصائص التفكير العلمي، باعتبار المعرفة العلمية واحدة من أهم فاعليات النشاط الإنساني وأرقاها. إن كثيرين من العلماء والمفكرين يتوقون إلى الانفلات من النظام المحكم الصارم القائم على العلم الواقعي،

لكي يستشعروا نشوة التأمل في النواحي الجمالية والجوانب الإنسانية المتعلقة بقيم الحق والخير والجمال، ولذا نجد أن كتب التأمل التي يكتبها العلماء بعد كل كشف علمي يوسع نطاق معرفتهم قد حظيت باهتمام كبير. كما أن الاطلاع على الفيزياء المعاصرة مثلاً يسوغ - من ناحية أخرى - الإعراب عن آراء لا تقتصر على موضوع بناء المادة وعلاقتها بالطاقة وحسب، بل تعدوها إلى طبيعة الحياة ووجود الإرادة الحرة، وغيرهما[1].

وتظهر أهمية هذا الجانب «الأكسيولوجي» من **«علوم العلم»** واضحة جلية في هذا العصر الذي نعيشه أكثر من أي عصر مضى، لأن الفلسفات العلمية المعاصرة، باستخدامها لرمزية اللغة، ساعدت على ظهور فئات عديدة منفصلة انفصالاً فكريًا بعضها عن بعض، بما تعانيه من تجارب وما تستعمله من ألفاظ، وما تعلقه على الرموز من معاني. ومن ثم فإن فلسفات العلوم المعاصرة تنتظر من يأخذ بيدها و يفرغها في صيغة جديدة، في نطاق معاني إنسانية واسعة تتفق مع مطالب الذهن المثقف بكل ما أنجزته هذه العلوم من حقائق علمية. والمنهج الإسلامي هو ما يجد فيه هذا المنقذ المنتظر عناصر الفهم الكامل للحقيقة المطلقة التي يسعى الإنسان إلى إدراكها من وراء بحثه في ظواهر الكون والحياة، وهو ما يجد فيه - أيضًا - الأجوبة الشافية على المسائل التي تؤرق العقل عن الكون ومصير الإنسان. بل إن هذا المنقذ المنتظر سوف يجد في المنهج الإسلامي متسعًا لكل أنواع القيم النبيلة التي لها قوة التوجيه والدفع إلى الأمام، والتي تجعل من المعرفة غاية سامية لخدمة المجتمع الإنساني بأسره، نظرًا لما لها من تأثير في حياة البشر وسلوكياتهم. وهنا - في المقابل - تظهر على الفور أيضًا أهمية البعد الأخلاقي في علوم العلم التي يقوم عليها بنيان الإنسان وحضارته، و يُعنى به مبحث **«أخلاقيات العلم»**.

5- **«سيكولوجية العلم»:**

وهي التي تبحث في العمليات النفسية والعقلية التي تتعلق بالكشف العلمي، وما يقترن

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **مستقبليات الفيزياء في عالم متغير**، دار الرشاد ومكتبة الأسرة، القاهرة 2007م.
Ÿ راجع أيضًا ما جاء عن المادة والعقل والجمال والخلق والإنسان والمجتمع والعالم والماضي والحاضر في الكتاب القيم: «**العلم في منظوره الجديد**»، تأليف: روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو، ترجمة: د. كمال خلايلي، سلسلة «عالم المعرفة» (134)، الكويت 1409هـ/ 1989م، وهو أحد الكتب المعروضة في القسم الثاني من الكتاب الذى بين أيدينا.

بها من القدرات الإبداعية والخيالية الموجهة لحل المشكلات العلمية. فالكشوف العلمية تأتي في المقام الأول تأملات عقلية يوشيها الخيال العلمي السليم، ثم تخضع بعد ذلك لمنهج التحليل والتحقيق. والمسائل العلمية لها أصول عميقة في الوعي البشري، قد تصعب أحيانًا على مستوى التحليل، ولكنها سرعان ما تبدو للعباقرة فيلتقطونها بالحدس أو البداهة، ثم يفرغونها في نظريات علمية تتطور مع الزمن شيئًا فشيئًا. وتاريخ العلوم، بما فيها العلم الإسلامي، حافل بالكثير من أقوال وسير العلماء الذين صنعوه، وفيها ما يتضمن إدراكهم الواعي لآثار تجاربهم واكتشافاتهم، وثقتهم المسبقة في سلامة نظرياتهم على المدى البعيد. ولعل ما يمكن أن نسميه **«إنسانيات العلم»** يصبح من المباحث المستقبلية الأعم لعلوم العلم.

6- **«سوسيولوجية العلم»:**

وتعني بالبحث في التفسير الاجتماعي لتطور النظريات العلمية ومدى تقبل المجتمع لها، بالإشارة إلى أسلوب التنظير العلمي ونمطه الذي يعكس الصبغة السائدة في مجتمع ما. وهنا يأتي دور المعايير الثقافية والسلوكية والعقائدية في التأثير على تحديد الاتجاهات العقلية. وما حدث لجاليليو وغيره من علماء أوروبا يدل على أن حالة الثقافة السائدة في زمن ما ومكان ما يمكن أن تكون عقبة تحول دون صياغة الفروض التي تؤدي مباشرة إلى توجيه ملاحظات وإجراء تجارب تدور حول وقائع قد سبق تحديدها تحديدًا يجعل منها علمًا، وهنا أيضًا تبرز أهمية التربية السليمة في بناء المزاج العلمي للمجتمع، وتكوين الثقافة العلمية المتكاملة، والارتقاء بالذوق العلمي العام، لما لها من أثر بالغ في تحديد الاتجاهات العقلية، بما فيها التفكير العلمي ومنهجية البحث في العلوم المختلفة.

هذا بالإضافة إلى مباحث أخرى بالغة الأهمية تتعلق باقتصاديات العلم وإدارته أو تنظيمه، ودوره في اتخاذ قرارات متعلقة بالسياسة والأمن القومي، وعلاقته بالعلوم الأخرى، وتأثيره في كل مرحلة يبلغها من تطوره على مناهج التفكير وطبيعة التحول في مختلف ضروب النشاط الإنساني، باعتباره صناعة ثقيلة، أو مؤسسة اجتماعية كبرى، ذات أهداف حضارية. وعندئذ نجد الملاذ في المنهج الإسلامي الذي يحرر العقل من الخرافات والأوهام، ويطلقه للتفكير بغير حدود للكشف عن آيات الله في أعماق النفس، وفي آفاق الوجود[1].

(1) د. أحمد فؤاد باشا، **رحيق العلم والإيمان**، دار الفكر العربي، القاهرة 2000م.

وهكـذا فـإن كل مـا يُعنى مـن العلـوم بالبحث حـول العلـم، ولا يكون جـزءًا من لغته الموضوعيـة، إنما يندرج تحت مبحث أو أكثر من «علوم العلم» بمعناها الأعم والأشـمل، وهو مطلب ضروري لكل من يريد تعاملا واعيا، وفهمًا حقيقيًا لقضايا العلوم الكونية وفلسـفاتها، في نطاق الثقافة السـائدة، وفي حدود أوضاع وموضوعات وقضايا مستجدة ومتجددة على جميع المسـتويات الاجتماعية والاقتصادية والروحية والأخلاقية، وغيرهـا. والموضوع في مجمله لا يزال بكرًا، يحتاج إلى دراسات أكاديمية متأنية يقوم بها الباحثون في فروع العلوم المختلفة[1].

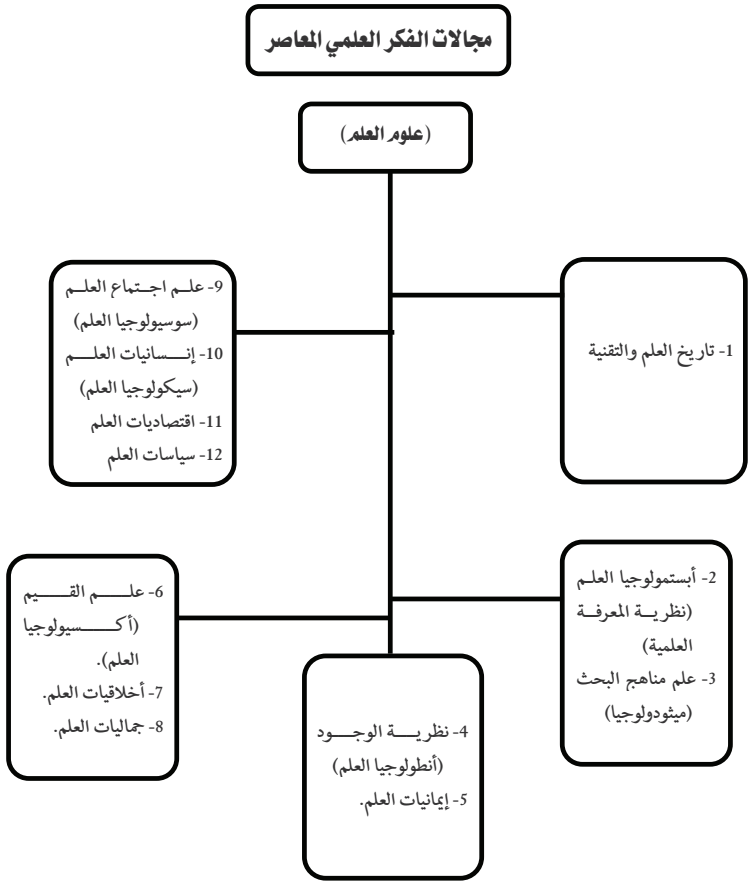

(1) د. أحمد فؤاد باشا، تصور مقرح لمجالات البحث في فلسفة العلوم برؤية إسلامية، **مجلة المسلم المعاصر**، ع (59)، الكويت 1411هـ/ 1991م. يطرح هذا التصور موضوعات مقترحة كأفكار إرشادية لأطروحات جامعية على مستوى درجتي الماجستير والدكتوراه.

المنهجية العلمية أُنموذجا

إن البحث العلمي واحد من أوجه النشـاط المعقدة التي يمارسها العلماء باستقصاء منهجي في سـبيل زيادة مجمـوع المعرفة العلمية وتقنياتهـا، ويطلق على العلم المعنيّ بطرائق وأسـاليب البحـث في العلـوم الكونيـة للوصـول إلى الحقيقة العلميـة أو البرهنة عليها اسـم «علم مناهج البحـث» أو «الميثودولوجيا» Methodology، كما يطلـق على منهج البحث في العلوم الكونية التي تبحث في الظواهر الجزئية للكون والحياة اسم **«المنهج التجريبي الاستقرائي»** ويقصد به منهج اسـتخراج القاعـدة العامة (النظرية العلمية)، أو القانـون العلمي، من مفردات الوقائع، استنادًا إلى الملاحظة والتجربة.

وينسـب الكثير من المؤرخين وعلماء المناهج الفضل في اكتشـاف هـذا المنهج إلى العالم الإنجليـزي «فرنسـيس بيكـون» الـذي وضع إبان عـصر النهضـة الأوروبية الحديثـة كتابه المشـهور «الأورجانون الجديـد»، ويعني به منهج البحـث التجريبي، ليعارض به أرسـطو في كتابه «الأورجانون» القديم.

ويشـهد استقراء تاريخ الفكر البشري بأن علماء الحضارة العربية الإسلامية كانوا أسبق مـن الغربيـين إلى نقض منطق أرسـطو النظري واتبـاع المنهج التجريبي قبـل «بيكون» بعدة قـرون، فقد اسـتطاعوا أن يميـزوا بين طبيعة الظواهـر العقلية الخالصة من جهـة، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وفطنوا إلى أن الوسيلة أو الأداة التي تستخدم في هذه الظواهر يجب أن تناسب طبيعة كل من هذه الظواهر.

واتجه علماء الحضارة العربية الإسـلامية إلى المنهج التجريبي الاستقرائي عن خبرة ودراية بأصوله وقواعده، وأحرزوا على أساسه تقدمًا ملموسًا في حركة التطوير العلمي والتقني.. فهذا هو الحسـن بن الهيثم - على سـبيل المثال لا الحصر - يصف ملامح المنهج التجريبي الاستقرائي الـذي اتبعـه في بحث ظاهرة الإبصـار بقوله: **«رأينـا أن نصرف الاهتمام إلى هـذا المعنى بغاية الإمـكان، ونخلـص العناية به، ونوقع الجـد في البحث عن حقيقته، ونسـتأنف النظر في مباديه ومقدماته، ونبتديء باسـتقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من**

كيفية الإحساس.. ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاء المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء.. فلعلنا ننتهي بهذه الطريقة إلى الحق الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدريج والتطلف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف، وتحسم بها مواد الشبهات.. وما نحن، من جميع ذلك، برآء مما هو في طبيعة الإنسان من كدر البشرية، ولكننا نجتهد بقدر مالنا من القوة الإنسانية، ومن الله نستمد العون في جميع الأمور».

ويوضح هذا النص - المقتبس من كتاب «المناظر» لابن الهيثم - بما لا يدع مجالاً للشك أن القواعد العامة التي وضعها ابن الهيثم لمنهج الاستقراء تتميز عن قواعد المنهج البيكوني بأنها ليست مجموعة من التعليمات والإرشادات التي تلتزم ترتيبًا محددًا لا ينبغي تجاوزه، مما يضفي عليها قدرًا كافيًا من المرونة يحول دون جمودها أمام حركة العلم وتطوره. كذلك تعكس عبارات ابن الهيثم كثيرًا من خصائص العلم التجريبي ومقومات نجاح البحث العلمي التي افتقدها كل من المنطق الأرسطي والمنهج البيكوني، وتوضح المقارنة أن «التجريبية» خطوة مقصودة في أسلوب البحث العلمي عند علماء المسلمين.

من ناحية أخرى، يتضح من القراءة المتأنية للنصوص العلمية في التراث الإسلامي أن الفضل في اكتشاف المنهج العلمي (التجريبي الاستقرائي) لا ينسب إلى عالم إسلامي بعينه، على غرار ما يقال عادة عن منهج أرسطو أو بيكون أو ديكارت، أو غيرهم، بل إنه يعزي إلى علماء كثيرين مهروا في مختلف فروع العلم. فهذا هو جابر بن حيان يلقي مزيدًا من الضوء على خصائص المنهج التجريبي الذي اتبعه، فيؤكد أن «لكل صنعة أساليبها الفنية»، ويحذر من الإفراط في الثقة بنتائج تجاربه، بالرغم من موضوعيته في البحث العلمي، فيقول: «إنا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط - دون ما سمعناه أو قيل لنا أو قرأناه - بعد أن امتحناه وجربناه، وما استخرجناه نحن قايسناه على أقوال هؤلاء». ويقول أيضًا: «ليس لأحد أن يدعي بالحق أنه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد، أو في الماضي والمستقبل إلا مثل ما في الآن».

ونجد في مؤلفات الرازي والبيروني والبتاني والبوزجاني والتيفاشي والخازني وابن النفيس وابن يونس وغيرهم ما يؤكد إيمانهم بالمنهج الجديد في تحصيل الحقيقة العلمية، ويوضح ممارستهم

لهذا المنهج عن إدراك وفهم دقيق لكل مسلماته وأدواته وخصائصه وغاياته. وفي هذه الحقيقة المهمة يكمن السر والدافع وراء نجاح هذا المنهج ومواكبته لحركة التقدم العلمي التي حثت عليها تعاليم الإسلام الحنيف ومبادؤه السامية، متمثلة في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تكرم العلم والعلماء، وتحث على إعمال العقل ومداومة البحث في ملكوت السموات والأرض، وتحرر التفكير من القيود والأوهام المعوقة للكشف والإبداع، وتحارب التنجيم والتنبؤ العشوائي والتعصب للعرق والعرف، وتحذر من الاطمئنان إلى كل ما هو شائع أو موروث من آراء ونظريات. ولا شك أن هذا كله أوسع وأشمل مما يعرف بأوهام الكهف والسوق والمسرح والجنس، وهي الأوهام الأربعة المنسوبة لبيكون، والتي كثيرًا ما يباهي بها فلاسفة العلم وشراح المنهج العلمي المعاصرون.

وتدلنا قراءة التراث الإسلامي على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي، فنرى - على سبيل المثال - أن الحسن بن الهيثم يستعمل لفظ «الاعتبار» (وهو لفظ قرآني) ليدل على الاستقراء التجريبي أو الاستنباط العقلي، ويستخدم قياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات. كذلك نجد أبا بكر الرازي يستخدم الأصول الثلاثة: الإجماع والاستقراء والقياس في تعامله مع المجهول، فهو يقول: «إنا لما رأينا لهذه الجواهر أفاعيل عجيبة لا تبلغ عقولنا معرفة سببها الكامل لم نر أن نطرح كل شيء لا تدركه ولا تبلغه عقولنا، لأن في ذلك سقوط جل المنافع عنا، بل نضيف إلى ذلك ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به، ولا نحل شيئًا من ذلك محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له. ما اجتمع عليه الأطباء وشهد عليه القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك».

ولقد استند علماء الحضارة الإسلامية على اختلاف تخصصاتهم - في اصطناعهم وممارستهم للمنهج العلمي - إلى مباديء أساسية، وثوابت فكرية إيمانية، ومتغيرات معرفية ومنهجية استمدوها من تعاليم دينهم الحنيف، ويمكن إيجازها فيما يلي:

1- عقيدة التوحيد الإسلامي هي نقطة الانطلاق في رؤية الإنسان الصائبة لحقائق الوجود. قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ [سورة العلق]، فالله سبحانه وتعالى هو الحق المطلق،

وهـو مصدر كل الحقائق المعرفية الجزئية التي أمرنا بالبحث عنها واستقرائها في عالم الشـهادة، باعتبارها مصدرًا للثقة واليقين، وليسـت ظلالاً أو أشـباحًا كما نظرت إليها الثقافة اليونانية. قال تعـالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سـورة فصلـت]. ومن ثم فطن المسـلمون الأوائل إلى الحكمة من جعل التوحيد الكامل الخالص لله - تعالى، وارتباطه بالقراءة (العلم)، أول الثوابت الإسـلامية، وأصلاً من أصول الدين الإسلامي، يتحقق به صالح مجموع الأمة، و إقامة أمر الإسلام، و إعلاء كلمة الله في الأرض.

2- الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى يستلزم بالضرورة العقلية أن يرد الإنسان كل شيء في هـذا الوجود إلى الخالق الحكيم الذي أوجد هـذا العالم بإرادته المباشرة المطلقة على أعلى درجة من الترتيب والنظام والكمال والجمال، وأخضعه لقوانين ثابتة لا يحيد عنها، وحفظ تناسـقه وترابطه في توازن محكم بين عوالم الكائنات. وقد شاءت إرادته تعالى أن تبـين لنا مـن خلال نظام الكـون ووحدته اطراد الحـوادث والظاهرات كعلاقات سـببية لنراقبها وندركها وننتفع بها في الحياة الواقعية، بعد أن نقف على حقيقة سلوكها، ونستدل بها على قدرة الخالق ووحدانيته.

3- الانطـلاق في التفكير العلمـي، كفريضة إسـلامية، في إطار المفهوم الإيماني لمسـلمتيْ التوحيـد والنظام الكوني، يجعل الطريق مفتوحًا دائمًا أمام تجدد المنهج العلمي وتطوره ومرونتـه بما يتناسـب مـع مراحل تطور العلـوم المختلفة، كما أنه يضفـي على النفس الاطمئنـان والثقة اللازمين لمواصلة البحث والتأمل، و ينقذ العلماء من التخبط في التيه بـلا دليل، كالإحالـة على الطبيعة أو العقل أو المصادفة، أو مـا إلى ذلك من التصورات التي طرحتها الفلسـفات الوضعية المتصارعة قديمًا وحديثًا وأصابتها بالعجز والعطب. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الملك].

4- منهـج البحث والتفكير في المفهوم الإسـلامي عقـلاني تجريبي إيمـاني في آن معًا، يقوم عـلى التأليف بين العقل والواقع، في ظـل القيم الإيمانية الهاديـة، و ينمي الحس النقدي والنظرة الاستقصائية لدى الباحثين والمفكرين، و يعوّل في اكتساب المعرفة على العقل

والحواس وباقي الملكات الإدراكية التي وهبها الله للإنسان ليكون قادرًا على استجلاء حقائق الكون والحياة. وقد حمَّلنا الله سبحانه وتعالى مسئولية استخدام وسائل البحث العلمي وأدواته في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة النحل] وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء]، وقوله عز من قائل: ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة البلد].

5- أثبتت حركة التاريخ العلمي والتقني أن الكون يزداد مع التطور المعرفي عمقًا واتساعًا، وأن العلوم التي يحصلها الإنسان ليست نهائية في أية مرحلة من مراحل تطورها. وإلى نسبية المعرفة العلمية ومستوياتها تشير بعض معاني الآيات القرآنية الكريمة في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: 85]، وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: 114]، وقوله: ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: 76].

6- تكشف قراءتنا المتأنية لعلوم التراث الإسلامي عن سبق علماء المسلمين إلى تحديد عناصر المنهج العلمي بما يتفق مع كثير من المسميات والمصطلحات الجديدة التي يتداولها اليوم علماء المنهجية العلمية، مثل أنواع الملاحظة والتجربة (الاستطلاعية، الضابطة، الحاسمة،..)، ومقومات الفرض العلمي، واستخدام الخيال العلمي في المماثلة بين الظواهر المختلفة، والكشف عن الوحدة التي تربط بين وقائع متناثرة.

وهكذا نجد أن علماء الحضارة الإسلامية قد تشربوا تعاليم دينهم الحنيف، واصطنعوا لأنفسهم منهجًا علميًا إسلاميًا تجاوزوا به حدود الآراء الفلسفية التي تميزت بها علوم الإغريق، ولم يقفوا عند حد المواريث الفكرية التي نقلوها إلى اللغة العربية، آخذين في اعتبارهم طبيعة التفاعل مع الثقافات أخذًا وعطاءً، مع الاحتفاظ بالخصوصيات المعبرة عن الهوية والانتماء، وانتقلوا إلى إجراء التجارب واستخلاص النتائج بكل مقومات الباحث المدقق، مدركين أن لمنهجهم الجديد شروطًا وعناصر نظرية وعملية وإيمانية يجب الإلمام بها، فجاءت حضارتهم مطبوعة بطابع الإسلام وممهورة بخاتمه.

وعندما انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا، فطن علماؤها إلى سر تقدم المسلمين، وسعوا إلى اتباع منهجهم بعد أن وجدوه سمة العلوم في الحضارة الإسلامية، وقال «روجير بيكون» في ذلك: «إنه باتباع المنهج التجريبي الذي كان له الفضل في تقدم العرب، فإنه يصبح بالإمكان اختراع آلات جديدة تيسر التفوق عليهم.. ففي الإمكان إيجاد آلات تمخر عباب البحر دون مجداف يحركها، وصنع عربات تتحرك بدون دواب الجر، و إيجاد آلات طائرة يستطيع المرء أن يجلس فيها و يدير شيئًا تخفق به أجنحة صناعية في الهواء مثل أجنحة الطير».

لكن النهضة الأوروبية لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوى الجانب المادي من منهجها التجريبي، وتركت جانبًا الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالى، و يسخرها لخدمة البشر. ولذا فإن العلم في الحضارة المادية الحديثة والمعاصرة، بتخليه عن الإيمان والسمو الروحي، قد اعتبر قيمة حقيقية مطلقة في حد ذاته، وبالغ الناس في تقديسه وتمجيده على أساس أنه هو القوة القادرة على تحقيق الجنة الموعودة للإنسان على الأرض. فأنصار هذه (النزعة العلمية المتطرفة) Scientism يردون كل شيء إلى العلم، ولا يُسلِّمون إلا بالمنهج العلمي والحقيقة العلمية. كذلك أصبح التطور الكمي للعلم والتقنية غاية في حد ذاته، ونشأت «النزعة التقنية المتطرفة» Technocracy.

وليس هناك من شك في أن الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى تعتبر حلقة هامة في تاريخ العلم والحضارة بما قدمه علماؤها من تأسيس لمنهج علمي سليم ساعد على تطوير معارف جديدة. لكننا في عالمنا الإسلامي لا نزال بحاجة ماسّة إلى إعادة قراءة تراثنا بأسلوب العصر ومصطلحاته، ليس فقط من أجل تحديث الثقافة العلمية الإسلامية، بل أيضًا من أجل ترشيد طرق التفكير العلمي طبقًا لخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، حتى يكون هذا الترشيد من الروافد الأساسية للنهضة الإسلامية المنشودة في ألفية المعرفة وعصر المعلومات.